

العربية وفلسفة الإعراب

واللغة العربية : من اللغات العريقة المنبث
الواسعة الأفق اتسعت فأحاطت بأبعد انطلاقات الفكر
وارتفعت حتى صعدت أرقى اختلاجات النفس .

ولقد زادت مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة
على النهوض بنبعاتها الحضارية عبر التطور الذي
تعيشه الإنسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الإصالة الجاهدة المولدة
المعطاء والميزات المطوعة المتطورة .

وانك لتحسن هذا في كلماتها التي تمثل خطرات
النفوس ونبضات القلوب ، وكل كلمة لها في الجملة
مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها .

ولهذا صارت - بفعل عوامل مختلفة - لغة حية
بارزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها متانة وإبانة
وافصاحا عن المعاني : الإعراب .

والعربية لغة تتوخى الإيضاح والإصالة والإعراب
باحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غابة الإيضاح
والإفصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعض ،
وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفي اللغات الخالية من الإعراب يعتمد أهل اللغة
على القرائن وعلى إضافة كلمات إلى الجملة لفهم
المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربما لا
يطرد - كما يقول صاحب الطراز - فأوجب العربية
التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع اللبس والإبهام .

والإعراب : مصدر أعربت عن الشيء إذا أوضحت
عنه . ويقال : فلان معرب عما في نفسه أى مبين له

وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا إذا بزغته .
وذلك بأن تنسف أسفل حافره .
ومعناه : انه قد بان بذلك ما كان خفيا من امره
لظهوره الى مرآة العين بعد ما كان مستورا وبذلك
تعرف حاله أصلب هو أم رخو ، أصحح هو أم سقيم ،
وغير ذلك .
وأصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما
يعزى إليه من الفصاحة والإعراب والبيان ، ومنه
قولهم في الحديث : « الثيب تعرب عن نفسها » .
والمعرب صاحب الخيل العربا وعليه قول
الشاعر :
ويصل في مثل جوف الطوى
صهلا تبين للمعرب

اي اذا سمع صاحب الخيل العربا صوته علم
انه عربي ومنه : المروبة . والعروبة الجمعة ، وذلك
أن يوم الجمعة أظهر أمرا من بقية الأسبوع لما فيه من
التأهب لها والتوجه إليها وقوة الأشعار بها ، قال
الشاعر العربي القديم :
يوائم رهطا للعروبة صيما

ولما كانت معاني المسمين مختلفة كان الإعراب
الدال عليها مختلفا أيضا . وكأنه من قولهم : « عربت
معدته » أى فسدت . كأنها استحالت من حال إلى
حال ، كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة .
والإعراب اذن مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى
بعض الباحثين والدارسين من علماء مقارنة اللغات أن
الإعراب أرقى ما وصلت إليه اللغات في الوضوح

والإبانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة إلا اليونانية واللاتينية ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة إلا الألمانية .

أما اللغات الآرية الحديثة - وتشمل معظم لغات أوروبا الحديثة - فقد خلت من حالات الإعراب ولا مميزات فيها بين الرفع والنصب والجر وإنما يقوم مقامها الحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها مما لا يخرج عن الوضع ، الخارجي في المكان هذا ، في حين أن اللغة العربية قد استلزمت من أول الأمر - ما دام الإعراب مرعياً - أن يكون النظر إلى المعنى هو المبرر للتقديم والتأخير وتأكيد الإسناد وغير ذلك ، إلا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيد أباه وشكر سعيداً أبوه . علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه .

فبالإعراب يعرف الخبر من الإنشاء والمفعول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والتعجب من الاستفهام والنعت من الحال إلى غير ذلك .

وبالجملة : فتميز أغراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الإعراب ، فالإعراب في مثل (ما أحسن زيد يفرق بين الأغراض الثلاثة المثلة فيه ، فإذا قلت : ما أحسن زيد « بفتح نون أحسن وضم دال زيد » كانت « ما » نافية ، وأنت تريد أن زيدا لم يحصل منه إحسان .

وإذا قلت « ما أحسن زيدا » بفتح النون والدال كانت « ما » تعجبية ، وأنت تريد أن شيئاً عجيباً جعل زيدا حسناً .

وإذا قلت « ما أحسن زيد » بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية ، وأنت تريد معرفة أي شيء حسن في زيد علمه أم أدبه أم أخلاقه . الخ .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز فبالحركة يقولون : مفتاح للالة بكسر الميم وفتح التاء و « مفتاح » بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز ببناء التانيث وعدمها ، فيقولون امرأة طاهر بدون التاء إذا أرادوا طاهرة من الحيض ، لأن الرجل لا يشاركها فيه ، وإذا أرادوا طهارتها من العيوب الخلقية ، قالوا امرأة طاهرة ، لأن الرجل يشاركها فيها ، فيحتاجون إلى التمييز بينهما ، ومثله امرأة قاعد إذا أنقلها الحبل

وقاعدة من القعود ، أي جالسة لأن الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد ويروى أن رجلاً دخل على أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فقال له : من غير إعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له أمير المؤمنين : « بين الفاعل من المفعول رضى الله فاك » .

وبنت أبي الأسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها : « ما أحسن السماء » ، فقال أبوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا أسأل وإنما أنا أتعجب » فقال لها اذن قولي « ما أحسن السماء » وافتحي فاك . وسمع أبو الأسود قارئاً يقرأ قوله تعالى : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله ، فأكبر أبو الأسود ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرا من رسوله .

وكان هذا سبباً في وضع علامات الإعراب للمصحف بأمر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلاً من الخوارج مدح رئيسهم شبيباً بن يزيد الخارجي بقصيدة جاء في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقنمـب
ومنا أمير المؤمنين شبيبـب

فأخذه عبد الملك بن مروان وسأله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم أقل هذا بل قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب « بفتح الراء في أمير أي يا أمير المؤمنين ، فأمر بتخلية سبيله .

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى الإعراب عند العرب فقال : أن كلامهم - أي العرب - واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة ، ألا ترى أن قولهم : زيد جاء في مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم .

فمن قال : زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة ، وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وأن زيدا قائم وأن زيدا قائم ، متغابرة كلها في الأدلة ، وأن استوت من طريق الإعراب فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

من الاعراب يضع أمام الابصار مشهدا فلسفيا ذا روعة
وأصالة .

فاللغة العربية لها من الخصائص لفهام المعاني
الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع
وكمال الصنع ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم
حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء
في مكانه الملائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل
وضوح وإبانة وهدى وأفصاح .

وكثير من كواكب الاستشراق وعلماء اللغات .
نوهوا بخصيصة الاعراب في العربية ، قال العلامة :
« بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بشروعة عظيمة
من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن
علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات
السامية .

وقال الباحث : « لوى مسينيون » في حين ان
اللغة السريانية قد نقلت أجروميته عن اللغة اليونانية
نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء ضخما

